سنة حافلة

نحن الآن فى أيام الوداع من السنة الشمسية ، فلا تمضى أيام معدودات حتى نلحق « سنة ألف وتسعمائة وخمس وأربعين » بذمة التاريخ .

وأصدق ما يقال فى هذه السنة المولية - وتتفق عليه الآراء - أنها قد حملت من الحوادث والأطوار فوق ما تطيقه سنة واحدة ، بل فوق ما تطيقه سنوات .

فقد شهدت مصارع ثلاث من الدول الكبار .

وشهدت محاولات الأمم - على متن الكرة الأرضية بأسرها - فى سبيل تقرير السلام .

وشهدت تجربة لم يسبق لها مثيل من تجارب الإنسانية لتنظيم الهيئة العالمية التى تقيم علاقات الدول على أساس الإنصاف ورعاية الأخلاق وتفضيل التفاهم بالمودة على التغالب بالسلاح .

وشهدت مساعى الأمم الجسام فى معاملاتها الجديدة سواء فى التجارة أو السياسة أو الثقافة أو تبادل المعونة والضمان .

وشهدت فى كثير من الأمم انقلابًا سلميًّا أو دمويًّا فى شكل الحكومة ومقاصد الرعية والرعاة .

وشهدت أخطر اكتشاف عرفه البشر منذ مئات السنين وهو اكتشاف القنبلة الذرية .

وهذه كلها رءوس مسائل عامة ، تطوى تحتها من المسائل الخاصة أو المسائل المحلية ما يضيق عنه الحصر والإحصاء ، ولو بإشارة الإجمال .

فأحرى بنا أن نستفيد من سجل هذه السنة فائدته الأولى ، بل فائدته الكبرى . وهى أنها لا تحتمل المزيد من الحوادث والأطوار ، وأن الذين انتظروا منها مزيدًا من هذه وتلك يظلمونها ويكلفونها فوق طاقة الأيام ، وأولهم أولئك الذين انتظروا منها أن تحقق أحلام الإنسانية منذ آلاف السنين ، فلا تنقضى إلا وقد ذهب كل خوف وسكن كل اضطراب وارتفع كل ظلم وبطل كل خلاف ، وتوطد صرح السلام فى كل أمة وفى كل مكان .

أمل كثير على سنة قد اتسعت لما اتسعت له السنة المولية من الحوادث والأطوار .

بل كثير على سنة قد فرغت لهذا الأمل وحده دون سائر الآمال والأعمال .

بل كثير على عشر سنين ، بل كثير على مائة سنة تتواصل فى الجد والرجاء ... ولا أرانى من المتشائمين ولا من المتمهلين .

فإذا انقضت مائة سنة على هذا اليوم وصحت الأحلام كلها فى السلام الدائم فقد حق للإنسانية أن تغبط نفسها غبطة السعداء .

لقد مضت ألوف السنين فى ارتقاب السلام ، ولم تمض عبثًا ، ولا كان مضيها مسوغًا للتخاذل والقنوط .

فحسبنا أننا قد غيرنا أسباب الحروب فى هذا الزمن الطويل .

فكانت الحرب مطلوبة مشكورة لغير سبب ، ثم كانت مطلوبة كما تطلب الضرورات لأسباب من أوهى الأسباب . فسفكت دماء الألوف فى بعض الحروب لأن أمة من الأمم دخلت فى تركة أميرة تزوجها أمير فى أمة أخرى ، وسفكت الدماء لأن الشعوب كانت كالسلع التى يتنازع عليها التجار فى الأسواق : يطالب بها مدعى الحق فيها كما يطالب بقطيع من الماشية يساق هنا أو يساق هناك .

ثم ضنوا بالدماء أن تسفك لأمثال هذه الأسباب ، فسمعنا بالحرب التى تعلن لمصلحة عنصر ممتاز على سائر العناصر البشرية ، وسمعنا بالحرب التى تعلن فى سبيل مبدأ من مبادئ الأخلاق الفاضلة يسعد به الأقوياء والضعفاء ، وسمعنا بالحرب التى يراد بها ختام الحروب .

إن المتعللين الذين لا يفوتهم البحث عن دواعى القنوط يراجعون هذه الأسباب فيقولون : كلا أيها المتفائلون . إن الحروب التى أعلنت للنزاع على مواريث الأمراء ، أو لاعتبار الأمم تركة من التركات أو قطيعًا من قطعان الماشية ، لم تعلن فى الحقيقة لهذه الأسباب ، ولم تكن قط هى الباعث الصحيح إلى

القتال . ولكنها علل ظاهرة ومعاذير كاذبة ، تخفى وراءها أسبابًا أخرى لا تختلف كثيرًا عن الأسباب التى تضرم الحروب فى هذه العصور .

وربما صح ما يقول أولئك المتعللون .

ربما صح أن أسباب التركات والمواريث لم تكن هى بواعث الحروب وأنها كانت دائمًا من قبيل التعلات والمعاذير .

ولكن لماذا بطلت تلك التعلات والمعاذير ؟

لماذا لا يتعللون بها ولا يقبلها الناس منهم الآن ؟ لسبب واحد يدل على تقدم فى طريق السلام أو تقدم فى كراهة الحروب ، وأن الأسباب التى كانت تكفى للحرب من قبل قد أصبحت اليوم غير كافية فى نظر الساسة والشعوب ، ولابد من سبب أكبر وأعظم من تلك الأسباب لإقناع الناس بالحروب واستثارتهم لها فى العصر الحديث .

ومن استهان بهذا التقدم فخير له وللإنسانية أن يريح نفسه من عبء الرجاء أو القنوط فى هذه الأمور .

* * *

ستمضى السنة المولية إذن دون أن تنجز للناس كل ما انتظروه منها ، والملام عليهم لا عليها إذا اختلف الرجاء والتقدير .

وستمضى السنة المقبلة دون أن تنجز للناس كل ما يريدون – وعليهم الملام كذلك فى تعجل المراد ، وإن استحقوا الحمد على أنهم أرادوه .

غاية ما نرجوه بحق أن تنقضى السنة المقبلة ولا تدهم العالم بشر ما يخاف ، وهو اضطرام الحرب من جديد .

وهنا نظن ، بل نعتقد – أن قليلا من الثقة بدوام السلام أنفع من الكثير .

نعتقد أن اليقين فى دوام السلام خطر قد يجر إلى تجدد القتال الذى نغالى فى استبعاده وفى اتقائه .

هذا هو أكبر الأخطار فى هذه الأيام .

وكل شىء بمقدار .

حتى الرجاء – وهو من أعظم الخيرات – ينبغى أن نرجوه بمقدار وإلا انقلب إلى بعض الشرور .

فعسى أن يخاف الناس قليلاً ليظفروا بالرجاء الكثير .

وخليق بالناس أن يخافوا الحرب فى عصر القنبلة الذرية لأنه خوف يتحقق فى ساعات معدودات ولا يحتاج إلى انتظار الأجيال ولا السنوات . ثم تكون الساعة الواحدة أفتك وأهول من مائة عام .

وفى الحق أنه أعسر امتحان تعرضت له طبيعة الإنسان ، لأنه هو الامتحان الأخير .

إن أخفق فيه فلن تعاد له الفرصة كرة أخرى .

وإن نجح فيه فقد أصبحت هذه القوة الجهنمية بشيرًا له بالنعيم المقيم .

obeikandl.com